نَحنُ نَقُصُّ عَليكَ

سلسلة أعظم القصص ١٤٤٢ هـ

وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ

قصة سبأ

مركز دلائل
Dala'il Centre

قرآنية تشويقات

tashweeqatq@gmail.com

@tashweeqatquran

وبدلناهم بجنتيهم جنتين

سبأ قبيلة معروفة في اليمن، قال الطبري : «وسبأ يقال: اسم أبي اليمن»، مسكنهم بلدة "مأرب" أنعم الله عليهم بنعم الواحدة منها تكفي بأن يوصف صاحبها من ذوي النعيم فكيف بها مجتمعة، قال الطبري : «لقد كان لسبأ في مسكنهم علامة بينة، وحجة واضحة على أنه لا رب لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها»، وجاءت الآيات بذكر بعض مما بُسِط عليهم :

- قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ ، الجنة: الحديقة ذات الشجر الكثير، وقيل : كل بستان يستر بأشجاره الأرض، قال قتادة : «كان الإنسان ليدخل الجنتين في سبأ، فيمسك القفة على رأسه فيخرج حين يخرج، وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة، ولم يتناول منها شيئا بيده». كناية عن وفرة الفواكه والخيرات وارتوائها وامتلاء الأشجار بالثمار، قال قتادة: «كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار تسر الناس بظلالها، ولم يرد جنتين ثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة»،قال البقاعي: «كان يسير الراكب من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها، لا تواجهه الشمس ولا يفارقها الظل، لاستتار الأرض بالأشجار واستيلائها عليها وإحاطتها بها»، قال ابن باديس: «ومعنى هذا: أن طرق السير كانت منظمة تبعاً لتنظيم الغروس عن يمينها وشمالها».

وبدلناهم بجنتيهم جنتين

- وفرة الماء : قال الضحاك : «وكان إذا أمطرت سالت أودية اليمن إلى واديهم، واجتمع إليه الماء فسدّوا ما بين الجبلين فحجزوه بالصخر والقار، فانسد زمانًا من الدهر، لا يرجون الماء، أي: لا يخافون نفاذه».

- نقاء مناخهم وصفاء طبيعتهم : قال ابن زيد: «ولم يكن يُرى في قريتهم بعوضة، ولم يكن فيها شيء مؤذٍ؛ من الهمج والدبيب والهوام»، قال ابن عطية : «ولا شيء من الحيوان الضار»، قال ابن كثير : «وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج، وعناية الله بهم؛ ليوحدوه ويعبدوه»، قال البقاعي : «فكان أهلها في أطيب عيش وأرفعه، وأهنأ حال وأرغده، في نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء وتدفق الماء، وقوة الشوكة واجتماع الكلمة».

قال الشوكاني : «والحاصل أن الله سبحانه عدد عليهم النعم، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم »، قال الشيخ السعدي : «لِما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة».

وبدلناهم بجنتيهم جنتين

- قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ القرى المباركة المقصود بها الشام، قال البغوي : «قرى ظاهرة، متواصلة تظهر الثانية من الأولى لقربها منها، وكان متجرهم من اليمن إلى الشام»، قال ابن عطية : «فكان المسافر من مأرب إلى الشام يبيت في قرية ويقيل في قرية أخرى، فلا يحتاج إلى حمل الزاد»، قال البقاعي : «فهي ظاهرة للعيون بين تلك الجنان مع تقاربها، بحيث يرى بعضها من بعض، وكثرة المنافع فيها، والمعونة للمارة». ولما كانت مع هذا الوصف ربما كان فيه عسر على المسافر لعدم الموافقة في المقيل والمبيت، أوضح الله عز وجل عظيم نعمته عليهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٨١].

- ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ قال البقاعي: «أي جعلناه على مقادير هي في غاية الرفق بالمسافر في نزوله متى أراد من ليل أو نهار على ما جرت به عوائد السُفّار»، لا ينزلون إلا في قرية ولا يغدون إلا من قرية، فهي لذلك حقيقة بأن يقال لأهلها والنازلين بها على سبيل الامتنان: ﴿ سيروا ﴾ والدليل على تقاربها جداً قوله: ﴿ فيها ﴾».

وبدلناهم بجنتيهم جنتين

- ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ﴾ دل على كثرتها، وصلاحيتها للسير أيّ وقت أريد، قوله ﴿ليالي﴾ قال البقاعي: «إشارة إلى الأمن، وأعدل للسير في البلاد الحارة، وقوله ﴿أياماً﴾ إشارة إلى كثرة الظلال والرطوبة والاعتدال الذي يمكن معه السير في جميع النهار، أي: في أي وقت شئتم»، قوله: ﴿آمنين﴾ دل على عظيم أمانها في كل وقت، قال السمرقندي: «آمنين من الجوع، والعطش، واللصوص، والسباع».

وبدلناهم بجنتيهم جنتين:

قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ٦١].

﴿فأعرضوا﴾ قال السدي ووهب: «بُعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيا فكذّبوهم»، قال ابن كثير: «فأعرضوا عن توحيد الله وعبادته، وشكره على ما أنعم به عليهم»، فجازاهم الله بأن بدّل النعيم الذي كانوا فيه بعذاب:

مركز دلائل
Dala'il Centre

وبدلناهم بجنتيهم جنتين

- قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ [سبأ: ٦١] قال أبو حيان : «فسلط الله عليهم الجرذ فأرا أعمى توالد في السد الذي يسقون منه، وخرقه شيئا بعد شيء، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي فحمل ذلك السد، فروي أنه كان من العظم وكثر به الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين، وحمل الجنات، وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار»، ﴿ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ قال الزجاج : «العرم الشديد»، ومنه: رجل عارم، أي شديد، وصبي عارم أي شرس. قال البقاعي : «أي سيل المطر الغالب المؤذي الشديد الكثير الحاد الفعل المتناهي في الأذى الذي لا يرُدّه شيء، ولا تمنعه حيلة بسد ولا غيره».

- قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، قال ابن عباس : «أبدلهم الله مكان جنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط، والخمط: الأراك<. قال قتادة : «بينما شجر القوم خير الشجر، إذ صيّره الله من شر الشجر بأعمالهم». قال الزجاج : « كل نبت قد أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله خمط». و"الأثل" قال قتادة: هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء، وقيل هو السمر، ﴿ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ ﴾ :قال القرطبي: «تقدير هاذواتي أكل حموضة، أو أكل مرارة».

وبدلناهم بجنتيهم جنتين

و"السدر" : قال البغوي : «شجر معروف وهو شجر النبق ينتفع بورقه لغسل اليد ويغرس في البساتين، ولم يكن هذا من ذلك، بل كان سدراً بريا لا ينتفع به ولا يصلح ورقه لشيء»، قال ابن كثير : « وقوله: ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ : لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر، قال: ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ ، فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك، والطرفاء، والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل».

- تفريقهم بعد اجتماع، قال الله تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ [سبأ: ٩١] قال قتادة : « بطر القوم نعمة الله، وغمطوا كرامة الله»، قال مجاهد : «بطروا النعمة وسئموا الراحة»، قال ابن عاشور : والتركيب يعطي معنى "اجعل البُعد بين أسفارنا"، ولما كانت بين تقتضي أشياء تعين أن المعنى: باعد بين السفر والسفر من أسفارنا، ومعنى ذلك إبعاد المراحل؛ لأن كل مرحلة تعتبر سفرا، أي باعد بين مراحل أسفارنا».

وبدلناهم بجنتيهم جنتين

فقال الله تعالى : ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ : أي قطعناهم في البلاد كل مقطع، قال ابن عاشور : «وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان، والتشتت في الأرض آية على ما يلجىء الاضطرار إليه الناس من ارتكاب الأخطار والمكاره، كما يقول المثل: الحمى أضرعتني إليك»، قال ابن كثير: «أي: جعلناهم حديثا للناس، وسمرا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا:"تفرقوا أيدي سبأ" "وأيادي سبأ" و "تفرقوا شذر مذر" ».

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ٩١] قال ابن عاشور : «والآية هنا: الأمارة والدلالة بتبدل الأحوال وتقلب الأزمان»، قال ابن كثير : «أي: إن في هذا الذي حلّ بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب، شكور على النعم».